تَوَاضُعُ الحبيب ﷺ

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: 88]

تواضع المنتصر!

في يوم فتح مكة دخل جيش المسلمين مكة فاتحًا منتصرًا دون أي مقاومة تذكر.. توجهت الأنظار إلى رسول الله ﷺ وبلغت قلوب المشركين حناجرهم من شدة خوفهم مما سيفعل بهم الرسول ﷺ الذي آذوه وأصحابه

فإذا به ﷺ يدخل مكة وقد ركب ناقته، ويقرأ سورة الفتح، وكان قد حنى ظهره وطأطأ رأسه تواضعًا لله، حتى إن طرف لحيته ليكاد يمس رحله خضوعًا لله وشكرًا له على ما أكرمه الله به من الفتح المبين

قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَامًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مِقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». (رواه أحمد).

وفي ذلك اليوم جاء رجل ليكلم النبي ﷺ وقد ظن أنه واقف أمام ملك من ملوك الأرض المنتصرين فهاله الموقف، وأخذته رعدة من هيبة موقفه ﷺ ؛ فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن هدَّأ روع الرجل وقال له قولته الشهيرة: «هوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ مَلِكًا، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ [اللحم المجفف]» (رواه ابن ماجه)

فبيَّن للرجل أنه ليس بمَلِك، وذكر له ما كانت تأكله أمه لبيان أنه رجل منهم، وليس بمتجبر يُخاف منه، فأي تواضع يحمله قلب الحبيب ﷺ؟!

كان ﷺ خافض الجناح للكبير والصغير، والأهل والأصحاب، والقريب والبعيد، حتى العبد والجارية، فالكل في نظره سواء، لا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح؛ وتزخر سيرته ﷺ بالكثير من المواقف والدلائل التي تشهد على تواضعه ﷺ مع الناس على اختلاف أحوالهم.

هل التواضع ينافي اعتزاز المسلم بنفسه ودينه؟

www.withprophet.com

تواضع الحبيب ﷺ مع أهل بيته

كان ﷺ يشارك في خدمة أهله في البيت؛ ولم يكن يترفع عن ذلك؛ فقد سَأَلَ رَجُلٌ السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنها: «هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا؟» قَالَتْ: «نَعَمْ كَانَ رَسُولُ ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِه» (رواه أحمد).

نعم.. إنه الخلق النبوي الكريم، فلم يكن ﷺ – رغم علو قدره ومنزلته – يأنف أن يقوم بإصلاح نعله، وخياطة ثوبه، بل كان ﷺ يشارك أهله في البيت ويقوم بتدبير شئون نفسه دونما ترفع أو كبر.

تواضع الحبيب ﷺ مع أصحابه

وصور تواضعه ﷺ مع أصحابه كثيرة، منها على سبيل المثال: أنه كان يأخذ بمشورة أصحابه كما حدث في غزوة الخندق إذ أخذ ﷺ برأي سلمان في حفر الخندق، بل يشارك أصحابه في نقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه!!

وكان ﷺ يمنع أصحابه من القيام له، وما ذلك إلا لشدة تواضعه، فقد خرج ﷺ على أصحابه متكئًا على عصًا، فقاموا له، فكره ﷺ وقال لأصحابه: «لَا تَقُومُوا كَمَا يَقُومُ الْأَعَاجِمُ، يُعَظِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» (رواه أحمد).

وهذا خلاف ما يفعله بعض المتكبرين من حبهم لتعظيم الناس لهم، وغضبهم عليهم إذا لم يقوموا لهم.

ومن تواضعه ﷺ مع أصحابه أنه كان يجلس معهم كواحد منهم، ولم يكن يجلس مجلسًا يميزه عمن حوله، حتى إن الغريب الذي لا يعرفه إذا دخل مجلسًا هو فيه، لم يستطع أن يفرق بينه وبين أصحابه!! فكان يسأل: «أَيُّكم مُحَمَّدٌ؟! والنبيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بين ظَهْرَانِيهِم!..» (رواه البخاري).

فرسالته ﷺ ليست رسالة دنيوية، تطلب مُلكًا، أو تبتغي حُكمًا، بل رسالة نبوية أخروية، منطلقها الأول والأخير رضا الله سبحانه، وغايتها إبلاغ الناس رسالة الإسلام.

تغلغل التواضع في نفس محمد ﷺ

«فالسماحة والتواضع والرأفة والرقة تغلغلت في نفسه، ورسخت محبته عند كل من حوله.. ويؤثر عنه أنه كان لا يمتنع عن إجابة الدعوة من أحد مهما كان حقيرًا، ولا يرفض هدية مهداة إليه مهما كانت صغيرة، وإذا جلس مع أحد أيًا كان لم يرفع نحوه ركبته تشامخًا وكبرًا ... ».

وليم موير

مستشرق اسكتلندي.

www.withprophet.com

www.withprophet.com

وأبلغ ما تتجلى صور تواضعه ﷺ حينما ينهى أصحابه أن يمدحوه أو يسوِّدُوه عند حديثهم معه؛ فقد كان ﷺ يكثر أن يقول: (إنما أنا عبد الله ورسوله)، وعندما سمع بعض أصحابه يناديه قائلًا: يا سيدنا! وابن سيدنا! وخيرنا! وابن خيرنا! نهاه عن هذا القول، وقال له: «أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (رواه أحمد).

فهو ﷺ مُقرٌّ لله بهذه العبودية، خاضع له في كل ما يأمر به وينهى عنه؛ ثم هو بعد ذلك رسول الله إلى الناس أجمعين.

كيف يدل التكبر على دنو النفس وسفالتها؟

تواضع محمد ﷺ مع الصغار والكبار

«إن محمدًا كان يتصف بكثير من الصفات كاللطف والشجاعة، وكرم الأخلاق... فقد بلغ من نبله أنه لم يكن يسحب يده من يد مصافحه حتى لو كان يصافح طفلًا! وأنه لم يمر بجماعة يومًا من الأيام رجالًا كانوا أم أطفالًا دون أن يسلم عليهم، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة، وبنغمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعيها، وتجذب القلوب إلى صاحبها جذبًا».

لين بول

مستشرق وعالم آثار بريطاني.

تواضع الحبيب ﷺ مع الأطفال

ومِن تواضعه ﷺ أنَّه إذا مرَّ على الصِّبيان، سلَّم عليهم، فروي عن أنس رضي الله عنه: «أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ»، وقال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ» (رواه البخاري).

كما كان ﷺ «يَزُورُ الْأَنْصَارَ، وَيُسَلِّمُ عَلَى صِبْيَانِهِمْ، وَيَمْسَحُ رُؤُوسَهُمْ» (رواه مسلم)، بل كان ﷺ يتباسط معهم ويداعبهم، فكان لأحد الصبيان عصفور صغير، يحبه ويداعبه ولا يكاد يتركه ساعة واحدة، وكان رسول الله ﷺ إذا رآه سأله عن عصفوره قائلا: «يا أبا عُمَيْر (كنية ذلك الطفل الصغير)، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟ (العصفور الصغير الذي كان يلعب به الصبي)» (رواه البخاري).

وعندما علم الرسول ﷺ بموت عصفور الصبي أسرع إليه يواسيه ويخفف عنه حتى تبسم الصبي ونسي حزنه.

هل هناك ربط بين التواضع والرفعة في مشاهداتك اليومية؟

تواضع الحبيب ﷺ مع الضعفاء والمساكين

وتواضعه ﷺ لم يكن قاصرًا على ما سبق، بل كان جليًّا واضحًا في معاملاته كافة حتى مع الضعفاء والمساكين والإماء، فكان ﷺ يخالطهم ويشاركهم السراء والضراء، فعن سهل بن حنيف قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْتِي ضُعَفَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَيَزُورُهُمْ وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ وَيَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ» (رواه الحاكم).

www.withprophet.com

حتى شمل تواضعه الإماء وهو من هو ﷺ ؛ فقد روى أنس بن مالك قال: «كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ» (رواه البخاري).

قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالُوا: «بَلَى». قَالَ ﷺ: كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ. ثمَّ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟» قالوا: «بلى». قال: «كُلُّ عُتُلٍّ [الفظُّ الغليظ] جوَّاظٍ [المختال في نفسه] مُسْتَكْبِرٍ» (رواه البخاري).

عن أنس رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُ الْمَرِيضَ، وَيَشْهَدُ الْجَنَازَةَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ، وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لِيفٍ» (رواه الترمذي).

فلم تشغله ﷺ النبوة ولم تمنعه مسؤولية أمته أن يجعل للضعفاء والمرضى نصيبًا من الزيارة واللقاء. فأين أصحاب الجاه والسلطان من هذا الخُلق العظيم؟!

أما في ركوبه فنراه ﷺ يركب ما يركب عامة الناس، فركب ﷺ الحمار والبعير والبغلة والفرس، فورد عنه ﷺ أنه «كَانَ يَوْمَ خَيْبَرَ عَلَى حِمَارٍ، وَيَوْمَ قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلِ لِيفٍ تَحْتَهُ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ» (رواه البيهقي) وهو من وسائل الركوب العادية في عصره ﷺ .

أما في نومه فيروي لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقفًا ترك أثرًا في نفسه حتى أبكاه، فيقول وهو يصف حاله عند دخوله على رسول الله ﷺ: «...وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ؛ فَبَكَيْتُ»، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ!» فَقَالَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟» (رواه البخاري).

لقد كان ﷺ مع علو قدره ورفعة منصبه أشد الناس تواضعًا، وألينهم جانبًا، وحسبك دليلًا على هذا أن الله سبحانه وتعالى خيَّره بين أن يكون نبيًّا ملكًا، أو نبيًّا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا.

وبالجملة، فإن الناظر إلى ما تقدم بعين الاعتبار، يعلم يقينًا أن خلق التواضع لازَمه ﷺ طوال حياته، وأنه من الأخلاق التي ينبغي على المسلم أن يتحلى بها ويحرص عليها؛ اقتداء برسول الله ﷺ؛ كي ينال خيري الدنيا والآخرة.

كيف تتعامل مع المتكبر المتعجرف؟ هل تتواضع له أم ماذا؟ دلل على ما تقول من سيرته ﷺ؟

www.withprophet.com

www.withprophet.com

تواضع الحبيب ﷺ في جميع شئونه

خلق التواضع كان سمةً ملازمةً له ﷺ في حياته كلها: في جلوسه. في مشيه وركوبه.. في أكله وشربه.. بل في شأنه كله، فنراه ﷺ في أكله وجلوسه يأكل كما يأكل العبد ويجلس كما يجلس العبد ويقول: «آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ» (رواه البيهقي).

كان ﷺ متواضعًا ولم يكن ذليلًا مهانًا، فما الفرق بينهما؟

حث الحبيب ﷺ أمته على التواضع

وردت كثير من نصوص السُّنَّة النَّبويَّة التي تدل على حثه ﷺ على التواضع، ومن ذلك قوله ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» (رواه مسلم).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» (رواه مسلم).

بل لقد نهى ﷺ أمته عن التكبر وحذرهم منه فقال ﷺ: «الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ» (رواه مسلم).

كيف تقتدي به ﷺ

1. اعلم أن الله رفع نبيه ﷺ بتواضعه، قال ﷺ: «مَنْ يَتَوَاضَعُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دَرَجَةً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً وَمَنْ يَتَكَبَّرُ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً، يَضَعُهُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ» (رواه أحمد)، فتواضع تنل الرفعة، ولا تتكبر فتكون أسفل السافلين.
2. كلما خالطَتْ نفسَكَ نشوةُ افتخارٍ وعُجْبٍ، ألْجِمْها بزمام التواضع سريعًا، وتعَرَّفْ على ضعفها ونقصها وخطئها، وفضل الله عليك بستره.
3. اقتدِ بالنبي ﷺ وكن متواضعًا مع أهلك كما قال ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي» (رواه الترمذي وابن ماجه)، وتواضع لإخوانك ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: 88].
4. اقرأ سيرته ﷺ وتأمل كيف كان تواضعه ﷺ على ما كان من علو منزلته.
5. صَلِّ على خير الأنام المتواضع ﷺ وتعلم منه التواضع، واقتدِ به تنل الرفعة في الدنيا والآخرة.

www.withprophet.com